مقياس منهجية و تقنية البحث التاريخي (1) .
السنة الثانية ليسانس
المحاضرة رقم 2
تعريف علم التاريخ

علم التّاريخ من العلوم الاجتماعيّة الّتي تختص بدراسة ماضي البشر، و قد اهتمّ به الناس منذ الأزمنة البعيدة ، فقد عكفوا على تدوينه و روايته ، و لم تخل حضارة من الحضارات السابقة من سجلات حفظت فيه منجزاتها و سطّرت فيه بطولاتها ، و لا يزال الحال على ذلك إلى اليوم ، فالتاريخ ذاكرة الشعوب و مفتاح نهضتها و شاحذ همم أفرادها .

1. تعريف التاريخ :

كلمة التاريخ مشتقة عند البعض من اللفظ السامي" أرخو" الذي يعني بالأكادية القمر أو الشهر و في العبرية " يرح أو يارح " و تعني أيضا القمر ، و قيل إنّه مأخوذ من الفارسية من لفظ ماه روز ، ماه يعني القمر و روز يعني اليوم ، و كأنّ الليل و النهار طرفه .

و هي ترد على لفظين : تأريخ بإثبات الهمزة و يقابل كلمة استوريوغرافيا (historiographie) ، و يفيد مطلق التعريف بالوقت كما ذكر الجوهري (ت393ه/1003م) ، و يشير إليه السخاوي (ت 902ه/1497م) في كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ بأنه يعني الإعلام بالوقت ، و يضيف أيضا نقلا عن الأصمعي (ت 216ه/831م) قوله : " بنو تميم يقولون ورخت الكتاب توريخا ، و قيس تقول أرخته تأريخا " ، و هذا يؤكد كونه عربيا .

و تاريخ بتسهيل الهمزة و هو يقابل عادة كلمتي استوار (histoire) الفرنسية و إستوري (history) الإنجليزية المأخوذتين من اللفظ اليوناني استوريا (historia) الذي يفيد الرؤية أو النظر أو المعنى ، و قد يعني البحث ، فالذي رأى أو قام شاهدا يعرف بالإستور (histor) ، و بذلك يكون المؤرخ بهذا المعنى هو الشاهد على الوقائع أو الذي يقوم برسم لوحة بيانية عن مجرى الحوادث التي علم بوقوعها خلال العصور، و هذا ما جعل هيرودوت (herodotus 484-425 ق.م) في القرن الخامس قبل الميلاد يعرّف التاريخ في كتابه عن الحروب الفارسية اليونانية بقوله : " هو عرض للاستقصاء و المعرفة و هدفه ألا تندثر أعمال التاريخ " .

و من خلال المعاني التي حملتها كلمة التاريخ يمكن القول إنّ لفظ التاريخ يقصد منه عند استعماله السرد المنظم لمجموعة الظواهر الطبيعية سواء كانت مرتبة ترتيبا زمنيا أم غير مرتبة ، و هذا ما تفيده أساسا كلمة التاريخ في الألمانية و التي تعني العلم الذي يبحث في حوادث الماضي و وقائعه التي انقضت ، و هذا عكس كلمة علوم التي

تعني السرد المنظم للظواهر الطبيعية بالمعـــاينة و التجربة و دون الرجوع إلى الماضي ، و كان العرب قد سبقوا إلى هذا المفهوم المحدد للتاريخ و الذي يفيد البحث في أحداث الماضي عن طريق المشاهدة و التحري و الضبط ، و ذلك منذ ظهور الإسلام ، و هذا ما يؤكده قول سفيان الثوري (ت 161ه/777م) : " لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ " ، و من ثم أصبح التاريخ يُعنى بتسجيل تاريخ الإسلام و أعمال رجاله و شمائلهم عن طريق الترجمة لهم أو رواية أخبارهم .

إنّ أغلب المؤرخين العرب المسلمين ركزوا في ذلك على سرد الوقائع و رواية الأخبار و ضبط تواريخها دون الاهتمام بالتعرف على المنطق الذي تندرج ضمنه الأحداث كما تدل على ذلك كتابات ابن الأثير (ت 630ه/1233م) و السخاوي (ت902ه/1497م) و السيوطي (ت 911ه/1505م) ، فابن الأثير يعرّف التاريخ في كتابه الكامل بقوله : " لقد رأيت جماعة ممّن يدعي المعرفة و الدراية و يظن بنفسه التبحر في العلم والرواية يحتقر التواريخ و يزدريها و يعرض عنها و يلغيها ظنا منه أنّ غاية الفائدة منها إنما هي القصص و الأخبار و نهاية معرفتها الأحاديث و الأسمار، و هذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره... و من رزقه الله طبعا سليما و هداه صراطا مستقيما علم أنّ فوائدها كثيرة و منافعها الدنيوية و الأخروية جمة غزيرة " .

و المنحى نفسه يؤكده السخاوي في كتابه الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ إذ يذكر أنّ التاريخ هو " أخبار الأنبياء - صلوات الله عليهم – و سيرهم و العلماء و مذاهبهم و الحكماء و كلامهم و الزهاد و النساك و مواعظهم ، عظيم العناء ظاهر المنفعة فيما يصلح الإنسان به أمر معاده و دينه " ، و كذلك يرد المعنى نفسه للتاريخ عند جلال الدين السيوطي (ت 911هـ -1505م) في كتابه الشماريخ في علم التاريخ إذ يعرف التاريخ بقوله : " إنّه معرفة الأجيال و حلولها و انقضاء الأجل و وفيات الشيوخ و مواليهم و الرواة عنهم ، فنعرف بذلك كذب الكاذبين و صدق الصادقين" .

هذا و إنّ مفهوم العرب المسلمين للتاريخ اكتمل و أصبح أقرب إلى التعريف الحديث لعلم التاريخ المعتمد على النظرة العلمية في تقصيه و ملاحظته للحوداث عند كل من البيهقي و ابن خلدون ، فالأول تميز بنظرته النقدية إلى الأحداث ، و الثاني انفرد بتعريف شامل و دقيق يحدد أبعاد علم التاريخ و آفاق البحث فيه ، فأبو الفضل محمد بن الحسين البيهقي(ت 470هـ-1077م) يذكر في تاريخه المعروف بتاريخ البيهقي : " أنّ على السامع ألا يقبل شيئا ممّا يرفضه العقل من الأخبار التي تُقرأ عليه ، و لكن أكثر الناس من العامة يفضلون الباطل و الممتع مثل أخبار الشياطين و الجن و الغول ... و ما يشبه هذه الخرافات التي ينام عليها الجهّال حين تتلى عليهم في المساء ، و أما أولئك الذين يتطلعون القول الصحيح لكي يصدقونه فهم الذين يعدّون من العلماء و عددهم جد قليل ، يتقبلون الطيب و يطرحون ما عداه ..." .

أما المؤرخ الثاني الذي ارتقى بالتاريخ الإسلامي إلى مستوى الفهم الحالي للتاريخ فهو عبد الرحمن بن خلدون (ت808 هـ- 1406 م) الذي حدّد مجال علم التاريخ بقوله : "اعلم أنّ فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد ، شريف الغاية ، إذ يوقفنا على

أحوال الماضين من الأمم و أخلاقهم و الأنبياء و سيرهم و الملوك في دولهم و سياساتهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن ترومه أحوال الدين و الدنيا..." .

و هذان نصان في تعريف التاريخ من المناسب للطالب أن يقرأهما بتمعن لعله يدرك قيمة العلم الذي هو مقدم على دراسته ، فيزداد به تعلقا و طلبا للتبحر في أخباره و إصرارا على كشف غوامضه و فك أسراره .

2 - تعريف ابن خلدون للتاريخ :

إنّ فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال و تشد إليه الركائب و الرحال و تسمو إلى معرفته السوقة و الأغفال ، و تتنافس فيه الملوك و الأقيال (جمع القَيْلُ من ملوك اليمن في الجاهلة دون الملك الأعظم) ، و يتساوى في فهمه العلماء و الجهال ، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام و الدول و السوابق من القرون الأول ، تنمو فيها الأقوال و تضرب فيها الأمثال وتطوف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، و تؤدي إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال و اتسع للدول فيها النطاق و المجال ، و عمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال و حان منهم الزوال .

و في باطنه نظر و تحقيق و تعليل للكائنات و مباديها دقيق و علم بكيفية الوقائع و أسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق و جدير بأن يُعدّ في علومها و خليق ، و إنّ فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام و جمعوها و سطروها في صفحات الدفاتر و أودعوها و خلطها المتطفلون بدسائس من الباطل و هموا فيها أو ابتدعوها ، و زخارف من الروايات الضعيفة لفقوها و وضعوها ، و اقتفى تلك الآثار الكثير من بعدهم و اتبعوها و أدوها إلينا كما سمعوها ، و لم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال و لم يراعوها ، و لا رفضوا ترهات الأحاديث و لا دفعوها .

فالتحقيق قليل و طرق التنقيح في الغالب كليل ، و الغلط والوهم نسيب للأخبار و خليل ، و التقليد عريق في الآدميين و سليل ، و التطفل على الفنون عريض و طويل ، و مرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل ، و الحق لا يقاوم سلطانه ، و الباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه ، و الناقل إنّما هو يملي و ينقل ، و البصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل ، و العلم يجلو لها صفحات الصواب و يصقل .

(عبد الرحمان بن خلدون، **المقدمة (ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)**، دار الفكر، بيروت، 2001م، ج1، ص 6) .

3 - تعريف الكافيجي (ت 879ه/1474م) للتاريخ :

التاريخ في اللغة هو تعريف الوقت و في الاصطلاح هو تعيين وقت لينسب إليه زمان مطلقا سواء كان قد مضى أو كان حاضرا أو سيأتي ، و قيل التاريخ تعريف الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع كظهور ملة أو وقوع حادثة هائلة من طوفان أو زلزلة عظيمة و نحوهما من الآيات السماوية و العلامات الأرضية ، و قيل التاريخ مدة معلومة بين حدوث أمر ظاهر و بين أوقات حوادث أُخر.

و أما علم التاريخ فهو علم يبحث فيه عن الزمان و أحواله و عن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك و توقيته .

و الزمان في العرف هو مقدار الحركة على الرأي المشهور و هو الذي يحتاج إلى معرفته أهل التاريخ ، و قيل الزمان في العرف هو أمر متجدد يتقدر به متجدد آخر.
(محي الدين الكافيجي، **المختصر في علم التاريخ**، تحقيق : د/محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، 1990م، ص 53 و ما بعدها) .